الكوفة وبيعة الإمام الحسن

الكوفة[1] هى « قبة الإسلام وذروة الكلام ومصان ذرى الإعلام إلا أن بها أجلافاً[2] تمنع ذوى الأمر الطاعة وتخرجهم عن الجماعة وتلك أخلاق ذوى الهيئة والقناعة » .

مصّرها المسلمون فى السنة السابعة عشر للهجرة بعد فتح العراق مباشرة ، وقد زاد عمران الكوفة زيادة مفاجئة حين هاجر إليها أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فاتخذها مقرًّا له بعد وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وكان دخوله إليها فى الثانى عشر من شهر رجب .

ولما كانت الكوفة هى عاصمة الخلافة فقد تقاطر عليها كبار المسلمين من مختلف الآفاق وسكنتها القبائل العربية من اليمن والحجاز والجاليات الفارسية من المدائن وإيران وعمرت فيها الأسواق التجارية وزهت فيها الدرامات العلمية .

وكان من الطبيعى أن يغلب على الكوفة التشيع للإمام على وأولاده عليهم السلام وكان لوجود الحسن عليه السلام فى الكوفة وإقامته فيها ما جعله قبلة الأنظار فانتهت البيعة له على خير ما كان يرجى لها من القوة والنشاط لولا أن

---

(١) وصف الكوفة = (صعصعة بن صرحان العبدى) .

(٢) الجلف هو الغليظ الجافى .

للقدر أحكاماً لا تجرى على أقيسة العقول ولا تسير على رغائب الأنفس ، فكان الجو السياسى فى العاصمة التى تحتفل لأول مرة فى تاريخها بتنصيب خليفة لا يزال راكداً متلبداً مشوباً بشىء كثير من التبلبل المريب وذلك هو ما ورثته الكوفة من مخلفات الحروب الطاحنة التى كانت على مقربة منها فى البصرة والنهروان وصفين ، وقد كان فى الكوفة فى هذا الوقت أنصار كثيرون لشهداء هذه الحروب وضحاياها من الفريقين يشاركونهم الرأى ويتمنون لو يسّر لهم أخذ الثأر ويعملون ما وسعهم العمل لتنفيذ أغراضهم .

أما الحسن رضى الله عنه وهو فى مستهل خلافته فقد كانت القلوب كلها معه لأنه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن من شرط الإيمان مودته ومن شرط البيعة طاعته[١] .

وكما يقول ابن كثير (وأحبوه أشد من حبهم لأبيه)[٢] .

إلا أن انتقال الخلافة الإسلامية إلى الحاضرة الجديدة فى العراق بما تحمله معها من الصراحة فى الحكم والصرامة فى العدل جعل فريقاً من النفعيين يفكرون فى إقامة جسر بين الكوفة والشام ، وكان هذا الفريق من النفعيين أقساماً ، فالحزب الأموى وعلى رأسهم عمرو بن حريث وعمارة بن الوليد بن عقبة وحجر بن عمرو وعمر بن سعد بن أبى وقاص وأبو بردة بن أبى موسى الأشعرى وإسماعيل وإسحق ابنا طلحة بن عبد الله وأضرابهم – فكتبوا إلى معاوية بالسمع والطاعة فى السر واستحثوه على المسير نحوهم وضمنوا له تسليم

---

(١) الشيخ راضى آل ياسين . (٢) البداية والنهاية .

الحسن إليه عند دنوهم من عسكره أو الفتك به[١]، وفيما يحدثنا المسعودى فى تاريخه (أن أكثرهم أخذوا يكاتبون معاوية سرًّا ويتبرعون له بالمواعيد ويتخذون عنده الأيادى) .

« ودس معاوية إلى عمرو بن حريث والأشعث بن قيس وحجار بن أبجر وشبث بن ربعى دسيسة ، وآثر كل واحد منهم بعين من عيونه أنك إذا قتلت الحسن فلك مائة ألف درهم ، وجند من أجناد الشام وبنت من بناتى ، فبلغ الحسن عليه السلام ذلك فاستلأم (لبس اللأمة) ولبس درعاً وكفرها وكان يحترز ولا يتقدم للصلاة بهم إلا كذلك فرماه أحدهم فى الصلاة بسهم فلم يثبت فيه لما عليه من اللأمة[٢] .

وكان هؤلاء قادة السخط وأعوان الثورة وتبعهم الخوارج[٣] وهم أعداء الإمام على رضى الله عنه منذ حادثة التحكيم وأقطابهم فى الكوفة عبد الله بن وهب الراسبى وشبث بن ربعى وعبد الله بن الكواء والأشعث بن قيس وشمر بن ذى الجوشن .

وكان الخوارج أكثر أهل الكوفة لجاجة على الحرب منذ يوم البيعة وهم الذين شرطوا على الحسن عند بيعتهم له حرب الحالّين الضالّين – أهل

---

(١) المفيد فى الإرشاد . (٢) علل الشرايع .

(٣) الخوارج هم قوم من الإسلاميين يرون فى سيرة الخليفتين عثمان وعلى رضى الله عنهما ومن بعدهما من أمراء المؤمنين وولاة أمورهم ما لا يرى عامة المسلمين ويزعمون أنها مخالفة للدين ، فيخرجون من الجماعة ويتألبون عليهم فيضطر أولو الأمر إلى قتالهم خشية اضطراب الأمن وانتشار الفساد ومن ذلك أطلق عليهم اسم (الخوارج) .

الشام – فقبض الحسن يده عن بيعتهم على الشرط وأرادها (على السمع والطاعة وعلى أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم) ، فأتوا الحسين أخاه وقالوا له : « ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك يوم بايعناه وعلى حرب الحالّين الضالّين أهل الشام » . فقال الحسين : « معاذ الله أن أبايعكم ما دام الحسن حيًّا » ، فانصرفوا إلى الحسن ولم يجدوا بدًّا من بيعته على شرطه[١] .

ومنهم أيضاً الشكاكين وسبب تسميتهم بالشكاكين ترجع إلى تأثرهم بدعوة الخوارج من دون أن يكونوا منهم فهم المذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ومنهم (الحمراء) وهم عشرون ألفاً من مسلحة الكوفة – كما يحصيهم الطبرى فى تاريخه – إلى جانب هؤلاء كانت الأغلبية الكبرى التى تناصر الحسن رضى الله عنه ، ومنهم جمهرة من بقايا المهاجرين والأنصار لحقوا عليًّا بالكوفة وكان لهم من صحبتهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما يفرض لهم المكانة الرفيعة بين الناس ، وقد برهن أنصار الإمام الحسن على إخلاصهم لأهل البيت منذ نودى الحسن للخلافة ، ومنذ نادى بعد خلافته بالجهاد وفى سائر ما استقبله من مراحل ، ولقد قدر لهم أن يكونوا يومئذ بمنجاة من دسائس المواطنين الآخرين ، وكان منهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى وحجر بن عدىّ الكندى ، وعمرو بن الحمقّ الخزاعى ، وسعيد بن قيس الهمدانى ، وحبيب بن مظاهر الأسدى ، وعدى بن حاتم الطائى والمسيب ابن نجية وزياد بن صعصعة وغيرهم .

---

(١) الإمامة والسياسة .